أسـرار المحـادثة

منى جبر الخزندار

لا يمكن لأي تطوير تربوي أن يشق طريقه إلى الأمام ما لم يكن هناك استقرار تربوي، وهذا الاستقرار التربوي لا يمكن توافره دون الأخذ بأسباب الاستقرار النفسي، وإليكم جميعاً أورد هذا الدليل:

وقفت أمامهم في المحاضرة الأولى بعد تحيتهم، وقد كانوا طلاباً يقارب عددهم السبعين طالباً في القاعة، أي حوالي مائة وأربعين عيناً تنظرني ... لأول وهلة غامرني شعور بأنني أقف أمام طلاب من كوكب آخر، وكانوا يحدقون بي وقد تحفز كل منهم لرسم صورةٍ لتلك المرأة التي جاءت لتعلمهم هذا المساق، وقد ارتدت الجلباب الفضفاض الطويل وغطاء الرأس ... نظرت إليهم بنظراتٍ هادئة متفحصة لأتعرف على وجوه طلابي، فوجدتهم كمن ينظر إلى المجهول....

بدأت بتعريفهم على نفسي أولاً، وأنني موجودة لتدريسهم مساق المحادثة (1) [Conversation(1)] باللغة الإنجليزية، وأوضحت لهم أهمية هذا المساق ودراسته وأننا بحاجة للتكلم بالإنجليزية أكثر من أي شعب آخر، فهي لغة محورية عالمياً ومن خلالها يمكننا أن نعبر عن رأينا وعن قضيتنا وعن مشاعرنا، في حين لا يمكن لأحد آخر أن يقوم بدورنا.

تدرجت بعدها في الحديث وقلت لهم إنني لا أتوقع منهم ألا يخطئوا ... فمن لا يخطئ لا يتعلم وكلنا يخطئ، ودعوتهم للتحدث بالإنجليزية طيلة المحاضرة وعدم الخوف من الوقوع في الخطأ حتى يتسنى لي القيام بدوري بشكل فعال، وأن هذه هي بداية التصويب وبداية الصواب ... بدأ الطلاب بعدها بالتجاوب في المحاضرة تدريجياً، وشعرت أنني قد فعلت شيئاً ما لتحفيزهم على ذلك. تتالت وتوالت المحاضرات، الواحدة تلو الأخرى، وكان الطلاب يشاركون في كل محاضرة بشكل أفضل من سابقتها.

كان الطلاب يحاولون الانتظام في كل شيء، وكانوا يأتون إلى الجامعة على الرغم من الحواجز ومخاطر الطريق وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية الصعبة، وجاء الامتحان النصفي وأظهر لهم ولي مستوياتهم المختلفة ... كان ذلك أمراً عادياً لم يكن به أي شيء من الغرابة، لكن أسرار المحادثة(1) ظهرت وكانت مفاجئة جداً لي، حين طلبت منهم أن يجهز كل منهم بمفرده (small talk) يتكلم فيه عن أي موضوع يختاره هو، فقد يكون ذلك خبرة سابقة أو حادثاً مؤثراً عن نفسه أو عن عمله.

كان هدفي الأول من ذلك هو كسر حاجز الرهبة والخوف داخل الطالب الذي يشعر به تجاه اللغة الإنجليزية، وإليكم ما كان:

- تحدث أحد الطلبة بالإنجليزية أمام الطلاب (زملائه) عن شعوره الحزين بعد دراسة عامٍ في كلية الهندسة في العراق وعن رحلته المريرة الشاقة في طريق عودته من بغداد إلى غزة مروراً بالأردن والتي لم يستطع بعدها الرجوع لاستكمال دراسته هناك.
- وتحدث أحدهم عن إحباطه الشديد عندما وجد نفسه في أحد العواصم الأوربية مع المنتخب الرياضي وهو لا يستطيع التخاطب مع ذلك الشعب بلغته أو التحدث باللغة الإنجليزية، ونصح زملاءه الطلاب بضرورة تعلم اللغة الإنجليزية، وقال لهم: «حتى عندما فرحت ووجدت

إخوة من بلاد المغرب العربي وحدثوني وظننت أنني وجدت ضالتي (وبخاصة أنني كنت قد ضللت الطريق إلى محطة القطارات) لم أفهم لهجتهم وقلت لهم: «حدثوني باللغة العربية فقالوا له: نحن نتكلم معك باللغة العربية»!

- تحدث أحدهم عن التدخين ومضاره للجسم والرئتين وأن والده قد توفى بسرطان الرئة من جراء تدخينه المفرط، ونصح زملاءه بالابتعاد عنه لأنه يهدر المال والصحة.
- تحدث أحدهم عن مأساته كونه يسكن بجوار أحد المستعمرات وكيف ينغص ذلك عليه حياته في مشواره إلى الجامعة كل يوم وعن معاناته وأسرته ليلاً، إذ لا ينامون من الخوف وصوت دوي القصف.
- تحدث أحدهم عن أهمية استخدام الكمبيوتر ومزاياه وتحدث عن مساوئ استخدامه وأنه سلاح ذو حدين.
- أحد الطلاب كان هادئاً طيلة الفصل الدراسي، وعندما جاء دوره في المحادثة وتكلم دمع قلبي حزناً، فقد كان والده يعمل في أحد دول الخليج العربي وأنه أثناء وجود جميع أفراد العائلة في غزة، بقى الوالد ليعمل هناك ويرسل ما يكسبه لأهله، وكيف أن والده نام ذات ليلة وحيداً فحدث ماس كهربائي في الغرفة أصبح على إثره محترقا وميتاً ... نعم... احترق في غرفته.. في غربته .. وحيداً .. وكانت تلك ضريبة مضافة يدفعها شعبنا إلى جانب ضريبة البعد عن ثرى الوطن.
- أحد الطلاب نشأ في الأردن ورجع إلى غزة ... وتمكن في مدة عامين من حفظ القرآن الكريم كاملاً ... و قال لهم إنه شفاء للقلوب والعقول.
- أحد الطلاب (وكان أكثرهم شغباً) وقف ليتكلم في دوره .. كنت أشعر أنه أصغرهم، بل وكأنه المدلل فيهم لا تفارقه الابتسامة أو الضحكة ويتدخل في كل الأمور ... و لكن عندما وقف أمام الجميع أحسست بأن أمامي رجلاً عجوزاً يحمل كل هموم الدنيا ... اختفت ابتسامته وفوجئنا جميعاً به وهو يتحدث بصوت جدي وهادئ ويقول إنه يعول أسرة كبيرة مكونة من أمه وإخوته العشرة بعد وفاة أبيه وأنه يعمل ويدرس في آن واحد!!
- أحد الطلاب تحدث عن انقطاعه فترة طويلة عن الدراسة في الجامعة لرقوده في المستشفى إثر إصابة أعاقته عن الحراك.
- كان معظم الطلاب أبناء لآباء يعملون في الخارج وقد أجبرتهم الظروف على الرجوع إلى ديار الوطن والاكتفاء بأقل القليل.

فقد كان حديثهم مثيراً ومؤثراً ... كانت للأغلبية منهم قصة واقعية تنبض بالصدق والألم معاً، وقد وجدت نفسي أدربهم على المحادثة وأصحح لهم أخطاءهم وأعالجهم نفسياً من خلال تفريغهم لمعاناتهم وحديثهم عن إحباطاتهم.

مهما كان حديثهم فقد كان مثيراً ومؤثراً ... كانت للأغلبية منهم قصة واقعية تنبض بالصدق والألم معاً، وقد وجدت نفسي أدربهم على المحادثة وأصحح لهم أخطاءهم وأعالجهم نفسياً من خلال تفريغهم لمعاناتهم وحديثهم عن إحباطاتهم.

أسرار لم أكن أتوقع منهم البوح بها وهم الشباب رمز القوة والتحمل والجَلَد، وربما لوجود طريقة غير مباشرة مثل استخدام لغة غير لغتهم سهل عليهم هذا الأمر.

وقد لوحظ أن أحاديث الطلاب خلت من عناصر مهمة يحتاجها أي إنسان يعيش في هذا الكون لاستمرار حياته وهي:

الشعور بالاطمئنان والبهجة والفرحة و الأمل، بل وكأن أحاديثهم قد رشحت برواسب من الحسرة والألم والمعاناة، فكأن أحدهم يقول: لا أستطيع أن أخطط ليومي، وإن فعلت، فربما ينطفئ ضوئي قبل أن تغيب شمس ذلك النهار.

وجدته شيئاً مفيداً على جميع الأصعدة لهم كأفراد وجماعات ولي أيضاً ... كأفراد أي كطلاب: عَبر كل منهم عن شيءٍ ما بداخله، ولربما وجده متنفساً له ولزملائه فيستمعون له، ويسألونه ويناقشونه.

ولي: أحدد مستواهم وأعرف نقاط ضعفهم في استخدام اللغة وأصوب أخطاءهم واحدد مواقع مشاكلهم النفسية، ولا أخفي عليكم أنني كنت أحس بارتياحهم وهم يتحدثون، وكأن الطالب منهم كمن يستعيد ثقته بنفسه أو كمن أُعيدت له روح القيادة، أو كمن استأصل ألما لطالما جثم على قلبه فاستراح منه.

بعض الطلاب لم يكن بمقدوره أن يقف أمام الآخرين بمفرده فجعلت أولئك يقومون بمحادثات ثنائية حتى لا يحرمون من دورهم، وقد حاولت تبسيط الأمور بشكل كبير لهم، ولكن دهشت حين وجدتهم يجدون في ذلك عبئاً كبيراً عليهم، لا بل وسألني أكثر من طالب منهم أكثر من مرة عن كيفية المحادثة وعن أدوارهم ولكن بالطبع كنت اكتم دهشتي.

كان الطالب منهم يبدي ارتياحاً كبيراً ويتنفس الصعداء بعد انتهائه من دوره ... الأمر الذي جعلني أتساءل: هل يحدث ذلك لأنهم طلابنا في هذه المنطقة من العالم؟ هل لدى الطلاب الآخرين سواء في الشرق أم الغرب مثل تلك الظروف النفسية؟

ربما نحن بحاجة لدراسة مستفيضة للتحقق من هذا الموضوع.

شيء واحد أزعجني، وهو تغيب عدد من الطلاب عن المحاضرات لتجنب إحراجه ولعدم استطاعته الوقوف أمام زملائه، واعتذر بعضهم عن ذلك.

أما من اعتذر فقد سمحت له بالتحدث أمامي على غير مسمع من زملائه، فاليوم يتحدث أمامي وفي المستقبل وبالتدريج يسهل الأمر عليه. ولكن ... كان الواحد منهم يبدو مضطرباً ومتلعثماً ومرتبكاً على الرغم من تهيئتي لهم جواً نفسياً مريحاً وهادئاً، بل مرحاً في كثير من الأحيان .. ولكن وكأنهم كانوا يحملون أعباء جساماً على كاهلهم وتَركها هو الخلاص منها.

مع أن الطلاب عموماً أو دعني أقول معظمهم لم يكونوا يجيدون قواعد اللغة الإنجليزية وكان حديثهم يفتقر إلى المفردات اللازمة والأساسية، إلا أن ذلك لم يكن مخجلاً لهم بقدر خجلهم من وقوفهم أمام زملائهم خوفاً من الإحراج أو السخرية، لذلك فقد كنت أسارع كلما تحرج طالب أو تعثر أو شعر بأن قدرته على الاستمرار في الحديث قد استنفدت، كنت أسارع إلى مدح موضوعه وأهميته وإعطائه فرصة لاستعادة ثقته وذلك بتوجيه أنظار الطلاب إلي وصرفها عنه، ثم أناقشهم في نقطة معينة طرحها أو أن أقوم مثلاً بسؤاله عن جانب من الحديث يحتاج إلى توضيح، بحيث أكون أنا على علم تام بأنه الوحيد القادر على الإجابة عن هذا السؤال بسهولة ويسر.

كان الطالب منهم يبدي ارتياحاً كبيراً ويتنفس الصعداء بعد انتهائه من دوره ... الأمر الذي جعلني أتساءل: هل يحدث ذلك لأنهم طلابنا في هذه المنطقة من العالم؟ هل لدى الطلاب الآخرين سواء في الشرق أم الغرب مثل تلك الظروف النفسية؟

إنني أرى أن هذا شيءٌ خطير يجب علاجه وله علاقه كبيرة في بناء شخصية الطالب (الذي سيصبح أبا لأطفال يزرع فيهم ما لم يُزرع فيه في صغره). نعم ... الشخصية التي تبدأ في مراحلها المبكرة من عهد الطفولة في مجتمع الأسرة ومجتمع المدرسة، لها علاقة كبيرة أيضاً بأساليب التربية في مجتمعنا المحلي.

وأقول لكم شيئاً ... وهو أن طلابنا و طالباتنا في جامعاتنا بحاجة إلى جرعات من الإرشاد والتوجيه النفسي مع كل مساق، فيا أيها المشرفون التربويون ويا أيها المحاضرون في كل جامعات الوطن .. رفقاً بأبنائنا ولنصبر ونتصابر لتحقيق الهدف الأسمى ... من أجل استعادة حضارتنا العربية ومجدنا العربي اللذين لم نعد نعرفهما إلا في كتب التاريخ.

لذلك نحن بحاجة ماسة لأن نتعاون جميعاً، تربويين وعلماء نفس، لوضع الخطط وحل هذه المشكلة، لأننا الشعب الذي تصدى دوما لجميع أنواع الأزمات وأثبت أنه الشعب الذي لا يقهر ولا تثنية الجراح عن الكفاح من أجل مواكبة العلم والتقدم.

منى جبر الخزندار – جامعة الأزهر – غزة